الآراء العلمية في فن التحقيق لرمضان عبد التواب من خلال كتابه مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين

الدكتور : دريم نورالدين
جامعة الشلف – الجزائر

مقدمة:

تحقيق النصوص التراثية أو ما يصطلح عليه بين الباحثين في هذا المجال بتحقيق المخطوط عملية صعبة فيها من التعقيد ما فيها ، مع أنها تخضع لمجموعة من القواعد الصارمة لأجل خدمة النص والسهر على تصحيحه ، و توضيحه ؛ لإخراجه على أمثل صورة كالتي أرادها المؤلف حين كتابته .

" فمن حق كل أمة أن تعتز بموروثها و تفخر ، و تعنى به و تفيد منه حيث يكون النفع و الفائدة فما أول الجديد إلا قتل القديم فهما ، و على الرغم من أننا نحن العرب لم نقصر في بعث التراث و تحقيقه و إن تعددت الجهود و جانب التوفيق بعضها إلى حد ما ، فإن ثمة حاجة إلى الاستمرار و المواصلة بغية الاستيفاء و الاستكمال و إلى قراءة التراث بصبر و أناة و عمق لافتعال القطيعة العمياء معه بدعوى المعاصرة و الجري التقليدي السريع وراء الآخر"[1].

هذا الذي عني بتراثه فأفاد منه في وضع المناهج و النظريات المختلفة " فالتحقيق بمفهومه العلمي الأصيل أصعب من التأليف ، و له أشياخه المعروفون الذين جعلوا يتناقصون عاما أثر عام و هذه سنة الحياة ولا سبيل إلى الخروج عليها "[2] ، و من أولئك " **الدكتور رمضان عبد التوّاب** "، الذي عكف على التراث مدة ربع قرن من الزمن محققا ، مرتبطا أشد الارتباط به ، و عمله هذا ما هو إلاّ موقف من قضايا الأمة و من ماضيها و حاضرها و تصور واضح لمستقبلها ، فقد انتفع النّاس بجهود المحققين أيّما انتفاع في مختلف المجالات المعرفية ، و قد انتفع الباحثون بجهود رمضان عبد التواب من خلال كتابه " مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين " ، فالكتاب خلاصة جهوده المضنية في فن التحقيق ؛ لذلك كانت لي وقفة مع هذا المرجع المهّم بمقال وسمته بـ " **الآراء العلمية في فن التحقيق لرمضان عبد التواب من خلال كتابه مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين**".

1- عرض الكتاب :

طبع كتاب " مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين " لرمضان عبد التواب طبعته الأولى سنة 1985 من قبل مكتبة الخانجي بمصر ، عالج فيه صاحبه قضية تحقيق النصوص و نشرها ، و لم يتأت له ذلك إلا بعد مدة ليست بالوجيزة ، فقد قضى حوالي ربع قرن من الزمن[3]. و قد أشار في مقدمة كتابه إلى أنّه لم يكن أول من يلج باب التحقيق بل سبقوه جماعة من العلماء الأفاضل عربا و مستشرقين ، و لكنه يرى أنّ أولئك المحققين لم ينهجوا المنهج الذي اتبعه في كتابه هذا فالكتاب يشتمل على مقدمة و تمهيد، و ثلاثة أبواب جمع في ثناياها سبعة فصول .

يعد كتاب مناهج تحقيق التراث بين القدماء و المحدثين خلاصة تجارب مؤلفه في تحقيق التراث العربي في ربع قرن من الزمن ، كشف فيه عن جهد ضخم بذله في جمع مادته، و إنه حقيقة و صدقا ليضم معلومات قيمة و موثقة توثيقاً جيداً، وإنه ليسدّ فراغاً في المكتبة العربية التي ندرت فيها الكتابات القيّمة حول هذا الموضوع ، فقد حاول المؤلف خلاله أن يربط جهود المحدثين من علماء العربية بجهود قدماء علمائها في فن التحقيق ، ليؤكد أصالة هذا الفن عند أهل العربية و يفند ادّعاءات باطلة زعم أصحابها أنّ فن تحقيق المخطوط صنعة غريبة وافدة على أهل العربية ،فاستقرت في أذهان بعض الدارسين هذه الفكرة ، وتداولوها بينهم خطأ .

يعالج المؤلف في فصول كتابه المتعاقبة بعد التمهيد الذي تطرق فيه إلى تعريف مصطلح التحقيق و التراث لغة واصطلاحا ؛ جهود علماء الحديث في التحقيق و الضبط و تحري الصواب من خلال تحرير نصوص الحديث من أخطاء الرواة و أوهام النسّاخ. و إنما كان ذلك لما كثر اعتماد المؤلفين على النقل المباشر من الكتب دون اللجوء للسماع من الشيوخ ، ثم وقف المؤلف على جهود القدامى تنظيرا و تطبيقا في تحقيقهم للنصوص .

و تطرق بعدها إلى بيان منهج المحدثين في التحقيق و أكد على ضرورة معرفته من قبل الباحثين و الناشرين على السواء ، فعلى حد قوله : كل باحث في الدراسات الإنسانية مطالب بتحقيق النصوص التي يستخدمها قبل الإقدام على استنباط أية نتائج ليختم ذلك بشيء من التفصيل عن مقومات المنهج و أبرز معالمه ، ثم عرج للحديث عن خطوات تحقيق النصوص،و فيها حثّ المؤلف على ضرورة الشك في النص الغامض ، كما بيّن وجوب الإتيان بالدليل القاطع الذي يثبت نسبة الخطأ إلى المؤلف، و لم يغفل الحديث أيضا عن الإلمام قدر الإمكان بمصادر المؤلف و كذا المؤلفات المماثلة ثم مراجعتها من أجل التثبيت الصحيح للنصوص المحققة ليتم تخريجها و توثيقها بصورة أدقّ و في كيفية إعداد النص المحقق للنشر ، تحدث المؤلف عن طريقة إعداد الهوامش ، داعيا إلى تبرئة النص من التصحيف و التحريف مبينا معنى المصطلحين و ما يتداخل معهما في هذا المجال مستدلا على ذلك كلّه بمجموعة من الشواهد .

نادى المؤلف في غير موضع من كتابه أثناء تخريج النصوص بمنهج الاستقصاء و الاعتماد على المصادر في التخريج لا الإكثار من النقل عنها في هوامش التحقيق و ظهر على المؤلف في كتابه محاربته لبعض البدع – كما سمّاه هو – و منها الابتداء بذكر المؤلف في الهامش قبل ذكر مؤلفه ،و ذكر بيانات المصدر كاملة عند أول استعمال له ، عبارة المصدر السابق ...

أما في مكملات التحقيق فقد تحدث المؤلف عن تقديم للنص ثم الترجمة لصاحبه، و كذا وصف المخطوطات التي اعتمد عليها المحقق. كما لم يغفل المؤلف الحديث عن موقف المخطوطات القديمة من مشاكل الهمزة و الألف المقصورة ،و تاء التأنيث، و علامات الترقيم ذاكرا بعض طرق معالجتها ، مشيرا إلى تيسير تعليم قواعد الهمزة التي وافق عليها مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ثم انتهى في الجانب النظري من كتابه إلى الحديث عن الفهارس ، و إن الفيصل عنده فيها سهولة الوصول إليها .

أما الجانب التطبيقي في الكتاب فقد خصه المؤلف لمجموعة من المقالات التي تضمنت جملة من النقود لبعض ما ظهر من النصوص خلال ربع القرن العشرين نحو : المزهر في علوم اللغة للسيوطي ، كتاب العين للخليل بن أحمد ، رسائل في النحو و اللغة ... و نظرا لأهمية الكتاب في هذا الميدان طبعت الدار السالفة الذكر الكتاب طبعة ثانية سنة 2002 .

2- الآراء العلمية في فن تحقيق النصوص الواردة في الكتاب :

الرأي الأول : نشأة فن تحقيق النصوص و أصالته .

يرى رمضان عبد التواب أن فن تحقيق النصوص قام عند العرب مع فجر التاريخ الإسلامي و كانت بداياته على يد علماء الحديث ، يقول :" قد قام فن تحقيق النصوص عند العرب مع فجر التاريخ الإسلامي و كان لعلماء الحديث اليد الطولى في إرساء قواعد هذا الفن في تراثنا العربي و تأثر بمنهجهم هذا أصحاب العلوم المختلفة "[4] ، و أكّد على رأيه هذا في موضع آخر من كتابه ، إذ يقول " لقد سبق العربُ علماء أوربا ، إلى الاهتداء للقواعد التي يقابلون بها بين النصوص المختلفة لتحقيق الرواية ، و الوصول بتلك النصوص إلى الدرجة القصوى من الصحة ، و إنّ ما صنعه عليّ بن محمد بن عبد الله اليونيني المتوفى سنة 701هـ في تحقيق روايات " صحيح البخاري " للإمام البخاري المتوفى سنة 256هـ، و إخراج النص الذي بين أيدينا الآن من هذا الكتاب، ليعدّ مفخرة لعلمائنا القدامى ، في التحقيق و الضبط ، و تحرّي الصواب "[5] .

و يعضد رأيه ، قول شيخ المحققين عبد السلام هارون:" ليس إحياء التراث أمرا حديثا بل هو عمل طبيعي قامت به الأجيال القديمة على امتداد الدهر على صور شتى من نشر و تلخيص أو نقد أو تعليق، فكم قد رأينا من كتب قديمة خلّفها أصحابها، فقام الناسخون و الوارقون بإحيائها و إذاعتها على نطاق واسع"[6].

و يزيد رأيه تأكيدا ما ذكره محمود مصري ، إذ يقول " إنّ المفهوم الذي ينطوي عليه ما نسميه اليوم علم تحقيق المخطوطات ، قد عمل بأصوله العرب المسلمون عند تدوينهم للقرآن، و السنّة الشريفة منذ عهد النبيّ صلى الله عليه و سلّم ، ثمّ دوّنوا هذا العلم و قعّدوه بشكل ناضج في تصانيفهم المتعلقة بعلوم الحديث منذ القرن الرابع للهجرة "[7] .

ثمّ إنّ الفاصل الزمني بين ظهور مبادئ التحقيق عند العرب(القرن الرابع للهجرة) و عند الغربيين(القرن الخامس عشر ميلادي) ثم نقله عنهم المستشرقون ؛ لهو خير دليل على أصالة نشأة علم تحقيق النصوص على يد العرب .

و على هذا الأساس يفند رمضان عبد التواب مزاعم بعض الباحثين[8] المحدثين العرب ممّن ظنوا أن فن تحقيق النصوص نشأ على يد المعاصرين من المحققين العرب أو استقوه من المستشرقين فالمستشرقون تأثروا بعلماء الغرب ممّن اعتنوا بنشر النصوص الآداب القديمة كاليونانية و اللاتينية في القرن الخامس عشر للميلاد ، حتّى انتهى بهم الأمر إلى وضع قواعد و أصول علمية لنقد النصوص و نشر الكتب القديمة في خلال القرن التاسع عشر للميلاد،و راحوا يطبقون ما تأثروا به على نشر أمهات الكتب العربية :

كالكامل للمبرد الذي نشره المستشرق " وليم رايت الإنجليزي " سنة 1864 و " جوستاف يان الألماني " الذي نشر شرح المفصل لابن يعيش ، سنة 1882، ... و غيرهم كثير.

الرأي الثاني : وجوب فقه فن التحقيق قبل الخوض في تحقيق النصوص .

يؤكد رمضان عبد التواب على ضرورة معرفة فن التحقيق معرفة دقيقة و عميقة لأجل معالجة النصوص التراثية ، يقول : "و لقد تيسر لي بعد ربع قرن من الزمان في علاج النصوص القديمة و تحقيقها و نشرها ، أنّ معرفة هذا الفن أمر لا يستغنى عنه كل من عالج نصا من هذه النصوص القديمة في بحث أو دراسة أو نشر "[9].

و يرى رمضان عبد التواب أن تحقيق النصوص و نشرها ليس بالعمل الهين السهل كما يظن بعض أدعياء العلم ،و ما كان حكم هؤلاء إلا لكثرة الدخلاء على فن التحقيق ، فالذي " يجيل النظر في واقع التحقيق اليوم ، يقف على ما يبعث الحسرة و الأسى من العبث الذي يمنّى به تراثنا ، و تجأر نفائسه بمرّ الشكوى على أيدي بعض من أقحموا أنفسهم في ساحة التحقيق دون بصر و دراية ،تؤهلهم للقيام بهذه المهمّة الشريفة بما تحمله في طيّاتها من أهداف نبيلة في بعث تراثنا ، و إحيائه ، و قد استسهل بعضهم هذه المهمّة و تصوّر أنّها لا تعدو أن تكون عملا آليا؛ فأقدم على خوض غمارها دون أن يعدّ العدة لذلك ، و ما درى أنّ التعامل مع المخطوطات و تحقيقها ليس بالأمر السهل أو الهين كما يتبادر إلى أذهان بعض شداة التحقيق ممّن أقدم في أيامنا هذه على ميدانه ، دون دراية تامّة بأصوله و وعي بحقيقته ، مع شيء من الجهل و ضيق ذات اليد من العلم ، و مع ذلك ، راحوا يتسابقون بلا روية و اكتراث على تحقيق المخطوطات و العمل على نشرها و إخراجها بأيّ شكل "[10]. فكان نتاج ذلك البعد عن النهج القويم لأصول التحقيق ، – و التي لا يمتلكها إلاّ من كان متضلعا في هذا الفن ، مدركا لآلياته و على دراية بما يتعلق به – ؛ ممّا خلّف كتبا تراثية محقّقة تحقيقا هزيلا ، لم تسلم من التصحيف و التحريف، و كثرة الأخطاء ، فيمكن القول عنها، إنّ عدم تحقيقها أجدى و أنفع من تحقيقها.

و قد ذمّ رمضان عبد التواب ما كان يقوم به بعض الوراقين في العصر الحديث في البدايات الأولى للتحقيق ، من قراءة المخطوطات ثمّ طبعها بأغلاطها ، و التحريفات الموجودة فيها ، يقول " أمّا اليوم و قد تغيّرت أساليب التحقيق و النشر ، فإنّ عملا كهذا يثير سخريتنا ، و لا يطمئن له الباحث الحديث "[11] ، و ربما كان ذلك منهم لغرض تجاري فيكون على حساب إتقان العمل ، مع أنّه يخلّف آثارا وخيمة لما تحمله المطبوعة من تحريفات للنص الأصلي ، و أخطاء بالجملة .

الرأي الثالث : في مفهوم تحقيق النص أو التراث .

يتفق معظم الباحثين في مجال التحقيق على أن مفهوم التحقيق ــ حتّى و إن اختلفت مفاهيمهم له لفظا فإنّها اتفقت معنى ــ هو : "نتاج خلقي لا يقوى عليه إلا من وُهب خصلتين شديدتين و هما : الأمانة و الصبر "[12].

و يعرفه مصطفى جواد على أنّه " الاجتهاد في جعل المخطوطة بنشرها مطابقة لحقيقتها ،كما وضعها صاحبها و مؤلفها من حيث الخط و اللفظ و المعنى و ذلك بسلوك الطريقة العلمية الخاصة بالتحقيق "[13].

و يرى السوداني أنّه " إخراج الكتاب مطابقا لأصل المؤلف أو الأصل الصحيح الموثوق ،إذا فقدت نسخة المصنف "[14].

و هو عند الفضلي " العلم الذي يبحث فيه عن قواعد نشر المخطوطات أو هو دراسة قواعد نشر المخطوطات "[15].

يرى بعض الباحثين[16] أن علم تحقيق النصوص العربية هو علم من العلوم الإنسانية فهو بذلك نسبي في نتائجه مثله مثل العلوم الأخرى كما يرى في النصوص المحققة أنّها نسبية القيمة مهما بذل المحقق من جهود لإخراجها على أفضل صورة لها و يعرّفه على أنّه علم مستقل بذاته .أي أنّه تخصص في ذاته فليس للمحقق أن يدعي التخصص في تحقيق ضرب خاص من التراث إلا على سبيل المجاز .

أمّا عند رمضان عبد التواب فهو " قراءته على الوجه الذي أراده عليه مؤلفه أو على وجه يقرب من أصله الذي كتبه به المؤلف"[17].

بعد أن قدّم رمضان عبد التواب مفهوما لتحقيق النصوص ، رأى أن المحقق ليس له الحق في أن يخمن أي قراءة معينة بل عليه أن يبذل قصارى جهده في محاولة العثور على دليل يؤيد القراءة التي اختارها ، بمعنى أن التحقيق " إثبات القضية بدليل "[18]. و إنّما رأى هذا الرأي لما " وقر في أذهان الناس خطأ أنّ المراد بتحقيق النص إعداده للنشر حسب القواعد المتبعة فحسب "[19].

يؤكد رمضان عبد التواب على شيء مهم في تحقيق النص ، هو استنباط نتائج معينة تقع على عاتق الباحث المحقق بعد تحقيقه للنص أولا ؛ أي استنباط النتائج يلي عملية تحقيق النصوص .

و قد عاب المؤلف كثيرا من الكتب المطبوعة التي يفترض أنها محققة " في حين أنها لا تفترق كثيرا عن المخطوطات ؛ لأن الذين تولوا طبعها و نشرها طائفة من الوراقين ، و بعض الأدعياء الذين لا يدرون عن فن تحقيق النصوص شيئا ، و لذا جاءت هذه المطبوعات في كثير من الأحيان مليئة بالتصحيف و التحريف ، نصوصها مضطربة مشوشة ، تبعد كثيرا عن الأصل الذي كتبه مؤلفوها "[20].

إن ضعف الزاد اللغوي للمحقق ،و و عدم امتلاكه لناصية التحقيق يؤديان به إلى الوقوع في مزالق كثيرة ،ينتج عنها البعد عن فهم ما جاء في المخطوط و بالتالي إخراج النص على غير وجهه الأصلي الذي أراده مؤلفه ، و قد مثّل لذلك رمضان عبد التواب بنص اقتبسه السيوطي في كتابه المزهر عن كتاب الألفاظ و الحروف للفارابي يقول فيه السيوطي :" و بالجملة فإنه لم يؤخذ لا من لخم و لا من جذام لمجاورتهم أهل مصر و القبط و لا من قضاعة و غسان و إياد لمجاورتهم أهل الشام و أكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية و لا من تغلب و اليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان و لا من بكر لمجاورتهم للقبط و الفرس "[21].

يتعلق النص المقتبس بالقبائل التي تؤخذ عنها اللغة العربية ، و قد لاحظ رمضان عبد التواب الاضطراب الواقع في النص ، و هو استحالة مجاورة اليمن لليونان في الجزيرة العربية ، فجغرافيًا البون شاسع بين موقعيهما ، ثم المجاورة الحاصلة بين بكر و الفرس في إيران و بين القبط و مصر في الغرب .

ولم يغفل المؤلف مجموعة من العلماء الأفاضل[22] الذين اقتبسوا هذا النص من المزهر دون الانتباه إلى هذا التحريف الفاحش ، و إنّما كان ذلك منهم لوثوقهم بالنص المحقق .

فالتحريف وقع في كلمة النمر التي أصبحت اليمن ، و النبط التي أصبحت القبط ، وقد تبين للمؤلف صواب التحريف بعد عودته إلى كتب السيوطي و بالضبط الاقتراح له ،يقول : " و لا من تغلب ولا النمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ، و لا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط و الفرس "[23] ، فالمقابلة بين النصوص للمؤلف الواحد تفضي إلى الوقوف على صواب التحريف الواقع في النصوص التراثية .

الرأي الرابع : مفهوم مصطلح التراث .

يرى رمضان عبد التواب أنّ أي شيء مكتوب وصل إلينا و في أي علم من العلوم أو فن من الفنون ، يعدّ تراثا يدخل في مجال تحقيق النصوص ، فالتراث " كل ما خلّفه العلماء في فروع المعرفة المختلفة "[24]، كما أنّ التراث ليس محددا بتاريخ معين كما ذكر المؤلف ، بل كل ما تركه عالم من العلماء بعد وفاته حتى و لو كان من عصرنا الذي نعيش فيه ، يمكن الاصطلاح عليه بالتراث .يقول رمضان عبد التواب :" فما كتبه شوقي و حافظ و طه حسين و العقاد و محمد مندور ، و أمين الخولي و غيرهم يعد تراثا لا يقل في أهميته عما خلّفه لنا أبو تمام و المتنبي و البحتري و سيبويه و الأصمعي و المبرّد و ثعلب"[25].

فالظاهر من قول رمضان عبد التواب أنّ كلمة تراث لا تعني ما خلّف المتقدمون من مخطوطات بل يتعدى إلى كلّ ما خلّفه العلماء حتّى و لو عاشوا في عصرنا هذا ، و هو بهذا يخالف من رأى أنّ التراث نعني به ما خلفه المتقدمون من علماء القدامى[26].

الرأي الخامس : ضرورة الاطّلاع على كتب علوم الحديث .

بعد أن قلّ الاعتماد على الرواية الشفوية في تحصيل العلم عند العرب ، و عمت الوجادة[27] – و هي إحدى طرق تحمل العلم – في العصور الإسلامية الوسطى (القرن الرابع للهجرة) ، " رأى العلماء أنّه لا مناص من وضع القواعد ؛ لضبط المؤلفات ، و تصحيحها ، و كيفية كتابتها على أسس واضحة في الضبط بالشكل ، و استخدام علامات مختلفة لإصلاح الخطأ ، أو تعديل العبارة أو حذف بعض أجزائها ، أو إضافة جديد إليها و غير ذلك من القواعد و الاصطلاحات التي لا بدّ منها لضبط الكتب و تصحيحها "[28].

رأى رمضان عبد التواب أنّ دراسة هذه القواعد في غاية الأهمية ؛ لأنّها " تلقي أضواء على قراءة تراثنا المخطوط في تلك العصور ، كما أنّها تحمل في طيّاتها بذور علم تحقيق النصوص بمعناه الحديث "[29].

و قد ذكر بعض أهمّ من ألّف في هذه القواعد[30] ،و منهم: الحسن بن عبد الرحمان بن الرَامَهُرمُزِيّ (ت360هـ) صاحب المحدِّث الفاصل بين الراوي و الواعي، ذكر رمضان عبد التواب أنّ هذا الكتاب مخطوط

– و لعلّه لم يطّلع على تحقيقه – ، و لكنّه محقّق من قِبل الدكتور محمد عجاج الخطيب، و نشرته دار الفكر ببيروت سنة 1971م ، و هو أول كتاب في علم دراية الحديث ، ضمّنه صاحبه بعض إرشادات يجب اتّباعها في الكتابة كاستخدام دائرة للفصل بين الحديثين ، و بعض طرق معالجة الخطأ في الكتابة كالضرب و غيره[31] .

و القاضي عياض بن موسى اليحصُبي (ت544هـ) ، صاحب الإلماع إلى معرفة أصول الرواية و تقييد السماع، من تحقيق السيد أحمد صقر، نشر سنة 1970 بالقاهرة، بدار التراث و بتونس سنة 1978 بالمكتبة العتيقة ، ضمنّه بعض طرق معالجة مشكلة الحروف المتشابهة و الكلمات المتشابهة في الرسم[32] .

الرأي السادس : في جمع النسخ المخطوطة للنص .

لتحقيق نص ما يصرّ رمضان عبد التواب على وجوب معرفة نسخة المخطوطة المتناثرة في شتى مكتبات العلم ، و يتم التعرف عليها عن طريق فهارس المكتبات ، و كذا الكتب التي تؤرخ للتراث و قد ذكر منها رمضان عبد التواب و ألح على الاطلاع عليها و منها :

تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين ، و إضافة إلى ذلك سؤال أهل العلم عما يعرفونه من نسخ الكتاب المراد نشره[33].

يرى رمضان عبد التواب ضرورة دراسة النسخ المخطوطة للكتاب قبل جمعها ؛ لأنّ بعض مخطوطات الكتاب قد نقلت عن بعضها الآخر ، و في هذه الحال " يكفي استخدام الأمهات فحسب إلا إذا كانت بعض النسخ الحديثة قد كتبها علماء معروفون ، أو سمعت عن علماء مشهورين ، ففي هذه الحال لابد من الحصول على هذه النسخ كلها"[34].

الرأي السابع : موقفه من الاعتماد على نسخة واحدة في تحقيق نص من النصوص.

يرى رمضان عبد التواب أنّه يمكن تحقيق نص من النصوص بالاعتماد على نسخة واحدة و ذلك في حال توفرت للمحقق نسخة واحدة فقط ، يقول :" إذا كان للكتاب نسخة واحدة فلا ضير تحقيقه بالاعتماد على هذه النسخة وحدها "[35]. لأنّ استقصاء " معرفة النسخ الباقية من الكتاب المخطوط الواحد أمر متعذر ؛ لأنّ أغلب المكتبات الخاصة غير مفهرسة ،أما المكتبات العامة و إن تمت فهرسة أغلبها فلا يزال كثير منها في حاجة إلى فهرس ، كما أنّ الحصول على صور من كل النسخ المعروفة فعلا للمخطوط الواحد أمر متعذر ؛ لأن كثيرا من المكتبات الخاصة أو العامة يبخل بما يقتنيه أو يهمل في الرد على ما يأتيه من طلبات ، كما أنّ التصوير يكبّد المحقق أموالا طائلة لا يعوضه النشر عنها ، و من ثم يكتفي أكثر المحققين بما تيسر لهم الحصول عليه ، و قد يكون في ذلك خطر على العمل المنجز في التحقيق ، خاصة إذا كانت النسخة يتيمة ، و مع ذلك يمكن للمحقق المقتدر الذي مارس التحقيق طويلا و تهمّم به وقتا ليس بالقصير بحب و غواية الإقدام على تحقيق النسخة اليتيمة بنجاح"[36].

فتحقيق النص بنسخة واحدة أولى من تركه يندثر، " فلا يتوان الباحث عن العمل فيها (تحقيق المخطوطات) قبل أن تضيع أو تأكلها الأرضة ، و الإعراض عن ذلك تفريط و تدمير "[37].

و لكن ليس للمحقق أن يتخذ هذا النهج في التحقيق سبيلا ؛ لذلك نبّه رمضان عبد التواب على ضرورة العودة إلى كل نسخ المخطوط المتوفرة ، فـ " إذا كان للكتاب أكثر من مخطوطة فمن الخطورة الاعتماد على نسخة واحدة من نسخه ؛ لأننا لا نضمن أن تكون هذه النسخة مستوفية لكل النص الذي كتبه المؤلف "[38].

و يرى رمضان عبد التواب ضرورة معرفة الطبعات السابقة للكتاب ،إن كان قد نشر من أجل نقد هذه النشرة ، إذا أخلّ فيها المحقق بشرط من شروط التحقيق ، كعدم اطلاعه على جميع نسخ المخطوط المتوفرة ، فإننا حينئذ نعيد نشرها[39].

في حين يرى بعض الباحثين أن لا جدوى من إعادة تحقيق ما حُقّق ؛ يقول : " مادام الهدف هو خدمة موروثنا بكل ضروبه المعرفية لم لا تبدد الجهود في إعادة آثار بعينها إن لم تكن ثمة حاجة و مسوغات إلى الإعادة"[40]. ثم يتدارك قوله و يذكر بعض المسوغات التي تجيز إعادة تحقيق ما حقق[41] ، و هي لا تخرج عن الإطار العام ، الذي حدده رمضان عبد التواب لإعادة تحقيق مخطوط قد حقق سلفا .

الرأي الثامن : المعايير العلمية المعتمدة في اختيار النسخة الأصل .

بعد أن بيّن رمضان عبد التواب المعايير العلمية التي يمكن اعتمادها ؛لأجل الحكم على المخطوط بالجودة ، قدم بعض الملاحظات المهمّة منها :

– رأى أن شكل الورقة في المخطوط و خصائص خطوطها لا يمكن الجزم في الحكم عليها " لأنه لا توجد عندنا ميزات قاطعة بانتماء هذه المخطوطة أو تلك إلى عصر معين على وجه التحديد اعتمادا على شكل الورقة أو نوع الخط "[42]. لذلك حثّ على وجوب استقصاء هيئة من هيئات الخط العربي المستعملة و تقسيمها حسب أسلوبها و قدمها و الجهات التي استعملت فيها .

– ليس من الضروري بمكان اتخاذ قدم النسخة مبررا " لاتخاذها أمّا ، ما لم يكن هناك من الدواعي ما يجعلها قادرة على قيامها مقام نسخة الأم "[43] ؛ لأنّ هناك نسخا حديثة قد تكون أدقّ من القديمة التي تكون مشحونة بالأخطاء ، ملأى بالتصحيف و التحريف ، أمّا الحديثة فقد تكون منقولة عن أصل قديم ضبطت روايته و صححت قراءته عن طريق السماع أو الرواية .

خاتمة:

بعد استقصاء الآراء العلمية في فن التحقيق لرمضان عبد التوّاب في كتابه مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين – و التي لم نأت على جميعها – ، خلصت إلى النتائج الآتية :

– أكّد المؤلف على حق كل أمّة أن تعتزّ بموروثها ، و تفخر ، و تعنى به ، و تفيد منه ؛حتّى يكون النفع و الفائدة ، و يكون ذلك من خلال تحقيقه و بعثه في ثوب قشيب .

– وجوب قراءة التراث بصبر و أناة ، و عمق لا افتعال القطيعة معه بدعوى الحداثة و العصرنة.

– هناك جملة من الآراء العلمية حفل بها الكتاب ، يجب على المحقق أن يرجع إليها للسير قدما في التحقيق بنجاح.

– التحقيق ليس عملا هيّنا و لا سهلا كما يظّن بعض الباحثين ، بل هو صعب و شاقّ ؛ لذلك وجب على المحقق أن يتدرع بالصبر الجميل حتّى يتغلب على المشاكل التي تعيقه في أثناء تحقيقه .

الهوامش :

يوسف بكار ، في تحقيق التراث و نقده ،دار صادر ،بيروت ، ط 1 ، 2012، ص 5 .

المرجع نفسه ، الصفحة 5 .

رمضان عبد التواب ،مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين ،مكتبة الخانجي ،ط1 ، 1985 ، ص 3 .

رمضان عبد التواب ، مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين ،ص 3 .

رمضان عبد التواب ،مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين ،ص 3 .

عبد السلام هارون ،تحقيق النصوص ونشرها، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط4 ، 1988،ص41.

محمود مصري ،تأصيل قواعد تحقيق النصوص عند العلماء العرب المسلمين جهود المحدّثين في أصول تدوين النصوص، مقال بمجلة معهد المخطوطات العربيّة ، القاهرة ، نوفمبر 2005 ، المجلد 49 ، الجزء الأول ، ص39 و ما بعدها .

ينظر : فاروق حمادة، منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفا و تحقيقا، دار القلم، دمشق، ط3 ،2011، ص 97. و يوسف بكار ، حوارات إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ،2004 ،ص 93. و فهمي سعد و طلال مجذوب ، تحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1993، ص5.

رمضان عبد التواب ، مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين ، ص 3 .

عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، تحقيق المخطوطات بين الواقع و النهج الأمثل ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض 1994 ، ص47.

رمضان عبد التواب ، مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين ،ص04.

عبد السلام هارون ، تحقيق النصوص و نشرها ، ص48 .

عبد الوهاب محمد عليّ ، أمالي مصطفي جواد : مجلة المورد العراقية ، بغداد ، المجلد 7 ، العدد1، سنة 1977 ، ص 36.

حسين محفوظ ، السوداني عبد الرحيم مع المؤلفين المعاصرين ، مجلة عالم الكتب ، الرياض المجلد 1 ، العدد 4 ، سنة 1981 ، ص650.

عبد الهادي الفضلي ، تحقيق التراث ، مكتبة العلم ، جدة ، ط 1 ،1982 ، ص 36.

ينظر : نجاة المريني ، تحقيق النصوص التراثية التصور و الواقع، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، الرباط ، المغرب ، ط1 ،2006 ،ص 41.

رمضان عبد التواب ، مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين، ص 5 .

المرجع نفسه ، ص 5.

المرجع نفسه ، ص 5.

رمضان عبد التواب ،مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين، ص 5 .

السيوطي ،المزهر في علوم اللغة و أنواعها ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم و آخرين القاهرة ، 1958 ،ج 1 ، ص 211

ينظر : رمضان عبد التواب ،مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين ،ص 6 –7 ، العلماء الذين اقتبسوا النص دون الانتباه لما وقع فيه السيوطي من الاضطراب .

السيوطي ، الاقتراح في علم أصول النحو : حيدر أباد الدكن ، الهند ، 1359 هـ ،ص 19.

رمضان عبد التواب ، مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين ، ص 8 .

رمضان عبد التواب ،مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين ،ص 8 .

ينظر :عبد الهادي الفضلي ، تحقيق التراث ، ص 35 ، و عبد المجيد دياب ، تحقيق التراث العربي منهجه و تطوره ، المركز العربي للصحافة ، القاهرة ، 1983 ، ص 9 .

الوجادة : تعني استخدام أحد الكتب و النقل عنه ، دون رواية عن مؤلفه أو عن راويه و بغض النظر عن المعاصرة أو القدم ، و يقول المتحمل بهذا الطريق : وجدت في كتاب فلان ، أو قال ، أو حُدِّثت ،و نحو ذلك، ينظر : رمضان عبد التواب ، مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين ، ص23.

رمضان عبد التواب ، مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين ، ص25.

المرجع نفسه ، ص25.

لمزيد من التفصيل المفيد في بدايات و ضع أسس علم التحقيق على يد المحدِّثين : ينظر : محمود مصري ، تأصيل قواعد تحقيق النصوص عند العلماء العرب المسلمين جهود المحدّثين في أصول تدوين النصوص، مقال بمجلة معهد المخطوطات العربيّة ، القاهرة نوفمبر 2005 ، المجلد 49 ، الجزء الأول ، ص39 و ما بعدها .

ينظر : الرامهرمزي ، المحدِّث الفاصل بين الراوي و الواعي ، تحقيق محمد عجاج الخطيب دار الفكر ، دمشق ، 1971 ، ص606.

القاضي عياض، صاحب الإلماع إلى معرفة أصول الرواية و تقييد السماع ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار التراث ، القاهرة ،1970، ص156-157.

ينظر : رمضان عبد التواب ، مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين ، ص 64 .

المرجع نفسه ، ص 65.

المرجع نفسه ، ص 65.

نجاة المريني ، تحقيق النصوص التراثية ، التصور و الواقع ، ص 15 .

فاروق حمادة ، منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفا و تحقيقا ، ص 110.

رمضان عبد التواب ، مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين ، ص 65.

ينظر :المرجع نفسه ، ص 66 .

يوسف بكار ، في تحقيق التراث و نقده ، ص 13 .

المرجع نفسه ، ص 14.

رمضان عبد التواب ، مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين ، ص66 .

المرجع نفسه ، ص 67.

<u>قائمة المصادر و المراجع :</u>

- حسين محفوظ ، السوداني عبد الرحيم مع المؤلفين المعاصرين ، مجلة عالم الكتب ، الرياض المجلد 1 ، العدد 4 ، سنة 1981 .
- الرامهرمزي، المحدِّث الفاصل بين الراوي و الواعي، تحقيق محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، دمشق ، 1971.
- رمضان عبد التواب ، مناهج تحقيق التراث بين القدامى و المحدثين،مكتبة الخانجي ،ط1 ، 1985.
- السيوطي ، الاقتراح في علم أصول النحو ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، 1359 هـ .
- السيوطي ، المزهر في علوم اللغة و أنواعها، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم و آخرين ،القاهرة ، 1958.
- عبد السلام هارون ، تحقيق النصوص و نشرها ،مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط4 ، 1988.

– عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، تحقيق المخطوطات بين الواقع و النهج الأمثل ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض، 1994.
– عبد المجيد دياب ،تحقيق التراث العربي منهجه و تطوره ، المركز العربي للصحافة ، القاهرة 1983.
– عبد الهادي الفضلي ،تحقيق التراث ، مكتبة العلم ، جدة ، ط 1 ،1982.
– عبد الوهاب محمد عليّ ، أمالي مصطفي جواد، مجلة المورد العراقية ، بغداد ، المجلد 7 ، العدد1، سنة 1977 .
– فاروق حمادة، منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفا و تحقيقا، دار القلم، دمشق،ط3 ،2011.
– فهمي سعد و طلال مجذوب ، تحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1993.
– القاضي عياض، صاحب الإلماع إلى معرفة أصول الرواية و تقييد السماع ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار التراث القاهرة ،1970.
– محمود مصري ، تأصيل قواعد تحقيق النصوص عند العلماء العرب المسلمين جهود المحدّثين في أصول تدوين النصوص، مقال بمجلة معهد المخطوطات العربيّة ، القاهرة ، نوفمبر 2005 ، المجلد 49.
– نجاة المريني ، تحقيق النصوص التراثية التصور و الواقع ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، الرباط ، المغرب ، ط1 ،2006.
– يوسف بكار ، حوارات إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ،2004 .
– يوسف بكار ، في تحقيق التراث و نقده ،دار صادر ،بيروت ، ط 1 ، 2012.